الروابط الحجاجية عند الجاحظ (كتاب البخلاء أنموذجا)

د. مصطفى ولد يوسف *

Abstract:

The behaviors of individuals to the discourse are related to the argument of its producer. The speech of Eldjahidh in his book stingy is based on a language system that combines dialectics and the proper use of argumentative links in the expression of the argument by an ironic style that prevent crossing between deduction logic of the grammatical statement which is the argumentative link and not expected explanatory speech behavior of the individual and his stingy about that convey argumentative values. Eldjahidh tried to find his way through the ironic writing to upset the false cultural institution that works in diversity statements editing and flattery during the Abbasid age.

تمهيد:

إن سلوك الأفراد إزاء الخطاب مرهون بحجة صاحبه(11)، والخطاب الجاحظي في كتاب «البخلاء» يقوم على نظام لغوي يجمع بين استدلالية المجادلة وحسن توظيف الروابط الحجاجيّة في عرض الحجة بأسلوب ساخر يمنع تقاطع الاستنتاج المنطقي للملفوظ النحوي المتمثل في الرابط الحجاجي مع اللامتوقع من الخطاب التفسيري «discours explicatif» لسلوك الكائن البخيل ، وملفوظا ته التي تحمل قيمة حجاجيّة ، وتخفي أزمة قيم ، سعى الجاحظ إلى تقصي مراميها عبر الكتابة الساخرة «écriture ironique» لتهشيم المؤسسة الثقافية الزائفة التي تشتغل في النوع الخطابي لملفوظات التنميق والتّملق في العصر العباسي.

*كلية االأداب و اللغات ، جامعة آكلي محند أو لحاج بالبويرة .

(1) دو مينيك مونقانو ، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، تر محمد يحياتن ، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1 ، 2005 ، ض12.

1 . الرّوابط وتوصيف الخطاب الحجاجيّ

تدخل الرّوابط الحجاجيّة في إطار كيفية تجاوز مضمون الخطـاب الثابت ، حيث لا تكتفي بنظام اللغّة في الخطاب والتواصل فقط ، وإنّما تفرض قيودا دلاليًـة على التأويل(11).

وقد اقترح «ديكور» مفهوما حجاجيا لهذه الروّابط والأدوات تزيح ذلك التصور التّقليدي لها ، وذلك بالبحث عن قيمتها الحجاجيّة ، مؤكدا على ضرورية التّمييز بين الرّوابط الحجاجيّة «les connecteurs» والعوامل الحجاجيّة les opérateurs ، فالرّوابط تربط بين قولين أو بين حجتين أو أكثر ، حيث كل قولّ أو ملفوظ له دور واضح ومشار إليه ضمن استراتيجية حجاجية عامة(22) ، ومن أدواتها: بل ، لكن، حتى ، إذاً...أمّا العامل الحجاجي ، فهو غير مرتبط بالمتغير الحجاجي أي الحجة والنتيجة ، وإنمّا تحصر الإمكانية الحجاجيّة ، ومن أدواتها: لرغم، الاسوى..(33) ، ولتوضيح الصّورة نأخذ المثال التالي:

ـ العلم أساس الرّخاء الاجتماعي.

ـ إنّما العلم أساس الرخاء الاجتماعي.

تشترك الجملتان في المحمول الإخباري أو الإعلامي ، ولكنّهما تختلفان في أنّ الجملة الثّانية عبر أداة القصر« إنّما » اكتسبت قيمة حجاجيّة مقيدة للملفوظ ، فعندما نقول «العلم أساس الرخاء الاجتماعي» فالمسار التأويلي ، للمحمول واسع و مفتوح ، أي يزخر بإمكانات حجاجيّة كثيرة. حيث يفهم منه أنّ العلم مهم و الدّعوة إليه أهم أو أن الجهل لا يحقق الرخاء الاجتماعي ، وأنّ العلم أفضل من المال أو بدون العلم ليس هناك رخاء وإنّما شقاء.

وعندما أدخلنا « إنّما » وهي أداة قصر أخذ المسار التأويلي في الانحصار فتقلصت الإمكانات الحجاجيّة لنصل إلى أنّ الرخاء ملازم للعلم فقط ، وهي الإمكانية الوحيدة لأي مجتمع ، بخلاف المقولة الأولى التي يمكن أن تخدم النتيجة المضادة كأن نقول: «المال أساس الرّخاء الاجتماعي ، أو السلم أساس الرّخاء الاجتماعي».

أمّا الرّابط الحجاجي المتمثل في حروف العطف كالواو والفاء والحروف المدرجة للنتائج كالحرف « إذاً» وحروف التّساوق الحجاجي كالحرف « حتى » ،

(1) ينظر : عبد السلام عشير : عندما نتواصل نغير ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص82

(2) ينظير : أبو بكر العزواي ، اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص 26 ـ 27

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

فإنّه يربط بين وحدتين أو مقولتين أو أكثر في إطار استراتيجية قولية واحدة[1] ، توخيًا لنجاعة الخطاب ، وعن فائدته البراغماتية[2]. وهذه الرّوابط أو القيود الاستدلالية التي تلعب دورا هاما في اتساق النّص وربّط أجزائه ، تساهم «في بناء الأقوال غير المصّرح بها بفضل مختلف الاستنتاجات التي يقوم بها المتخاطبون أثناء الخطاب.»[3]. والتّحديد النّحوي . الذي يحصر دور الرّابط / الأداة في وظيفة نحوية حريصة على إيصال الخطاب بلغة سليمة ومباشرة ، وأنّ كل ما يتمخض عنها من قوة حجاجيّة ، ترتكز على انسجامية مطلقة بين السّلم الحجاجي والرّابط الحجاجي[4].

ولتوضح مدى إثراء الرّوابط في توسيع المعنى نأخذ المثال التالي:

أ ـ عنترة شاعر وعبدٌ

ب ـ عنترة عبد وشاعر

ج ـ عنترة شاعر لكنّه عبد

د ـ عنترة عبد لكنّه شاعر

ففي التحليل المنطقي والنّحوي لا نجد اختلافات دلالية بين المقولات الأربع بوصف الفعل القولي يقوم على ثنائية «الشاعر ـ العبد» أو بالأحرى «الشاعرية والعبودية» ولكن التّحليل التداولي للرّابطين «الواو ولكن» يظهر الفروق الموجودة بين هذه الأقوال وهي:

في المقولين «أ»و«ب» يمارس الرّابط «و» وهو حرف عطف مبني على الفتح لا محل له من الإعراب لعبة استغلال الموضع «topos»[5] ، كون ما هو قريب للمبتدأ أهم ، أي الخبر من ما هو بعيد أي الاسم المعطوف على الخبر ، فتقديم الشّاعرية على العبودية في المقولة «أيجعل الموقع الحجاجي لشاعرية عنترة قويا وبالمقابل الوقع الحجاجي للعبودية يكون ضعيفا ، والعكس صحيح ، ومن ثمة نخرج من الدّائرة النحوية الضيقة التي تعتبر الواو مجرد حرف عطف يفيد المصاحبة عطفت اسمًا على اسم كما هو الشأن في المقولتين «أ» و«ب».

أمّا في المقولتين «جـ» و«د» فالرّابط هو «لكنّ» وهو حرف مشبه بالفعل يفيد

(1) ينظر : المرجع نفسه ، ص 29 ـ 30.

(2) ينظر : صابر الحباشة : التداولية و الحجاج ، صفحات للدراسات والنشردمشق ، ط1 ، 2008 ، ص 61.

(3) عمر بلخير : معالم للدراسة تداولية وحجاجية الخطاب الصحافي الجزائري رسالة دكتوراة ، جامعة الجزائر ، 2005 ـ 2006 ، ص 191..

(4) ينظير : عبد السلام عشير : عندما نتواصل نغير ـ ص 84.

(5) ينظر : صابر الحباشة ، التداولية والحجاج ، ص41.

الاستدراك مبني على الفتح لا محل له الإعراب يؤدي وظيفة تفاضلية ، ففي المقولة «ج» هناك إقرار بأن عنترة شاعر ، ولكنه عبر الاستدراك بالأداة «لكن» إضعاف لهذا القرار ، أيّ أنّ الموقع الحجاجي لـ «عبد» كان قويا ، مما أضعف صفة الشّاعرية لـ «عنترة» والعكس صحيح.

إنّ هذا التحليل التّداولي الذي يتجاوز التّركيب النّحوي الشّكلي مرتبط بوضعية السّياق ، فإذا كان معظما لشخصية عنترة الأدبية فسوف يطلب المقولتين «أ» و«د» وإذا كان السّياق التخاطبي يقلل من شخصية عنترة الأدبية بالإيعاز إلى موقعه الاجتماعي أو النسبي فسوف يطلب المقولتين «ب» و«جـ».

إنّ القول الحجاجي يتجاوز ظاهرُة النّحوي ليقيم علاقة حجاجيّة بين الباث / المتكلم والمستقبل/ المخاطب ، يكون هذا القول مثيرا للتّساؤل ، فعندما لجأنا إلى صيغة «لكن» في المقولتين «ج» و«د» جعلنا من القول سؤالا إشكاليا ، فأضحت إستراتيجية القول تقوم على التّقديرية ، وبالتّالي يصبح فعل المساءلة صفة للقول تقوم الحجاجي. وقد تحدث عبد القادر «الجرجاني» عن كيفية توظيف الرّوابط الحجاجية في العمليات التّخاطبية ، ومن ثمة قدم لنا صورة عامة عن الطابع ألتنوعي في استعمال هذه الرّوابط فيقول: و«أعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ... وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه... ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه ، نحو أن يجيء بما في نفي الحال وبلا إذا أراد نفي الاستقبال ... وإذا فيما علم أنه كائن ... وموضع الواو من موضع الفاء... وموضع لكن من موضع بل..»(1).

2 . الرّوابط وإحداثيتها النحوية والبلاغية والحجاجيّة (لكنْ ، لكنّ ، وإنما وإلاّ) الوصف النّحوي

1 ـ لكنْ : تأتي بطريقتين هما:

أ ـ «حرف عطفٍ يفيد الاستدراك بشروط هي :

1 ـ أن يكون المعطوف بها مفردًا لا جملة ولا شبه جملة.

2 ـ ألا تقترن بالواو»(2).

3 ـ أن تسبق بنفي أو نهي كقولنا: «لا تكن كسولاً لكنْ جاداً**حرف** ابتداء

(1) عبد القاهر الجوجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ، لبنان ، ط1، 1981 ، ص64 ـ 65.

(2) إميل بديع يعوب ، معجم الإعراب والإملاء ، دار شريفة للنشر ، الجزائر ، ط2 ، د ، ت ، ص383.

يفيد لاستدراك[1] ، إذا لم يتحقق شرط من الشّروط المذكورة آنفا كقول الشّاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمي:

إنَ ابن ورقاء لا تخشى بوادره لكنْ وقائعه في الحرب تنتظر

بعد « لكن » جملة اسمية مكونة من مبتدأ والخبر جملة فعلية « تنتظر «

ولكنْ حرف استدراك كقولنا: « ما كان عمر عبقريا ولكنْ طالب علم مجد« وهو أيضا حرف استدراك كقولنا« انتصر فريقي لكنْ لم يتأهل » ففي المثال الأولً سبق بالحرف « الواو » بينما في المثال الثاني سبق بكلام مثبت غير منفي.

2 ـ لكنَّ: حرف مشبه بالفعل يفيد الاستدراك[2] ، قولنا « نجحت لكنك لم تفز بالجائزة.

على الرغم من التباين بين لكنْ الحرفية و« لكنّ المشبه بالفعل في الوصف النحوي ، فإنّهما استقرتا على النّمط الاستدراكي للخطاب.

3ــ إنّما: توصل « إن » بـــ « ما » الزائدة الكافة، فتصبح كافة مكفوفة كقولنا: « إنّما العلم نورً »

4ــ إلاّ: تأتي استثنائية إذا ذكر المستثني منه ولم تسبق بنفي أو نهي[3] ، كقولنا: « شرب عليٌّ إلاّ قليلاً من الماء ». وتأتي حصريّة وذلك في الاستثناء المفرّغ وشرط ذلك أن يكون الكلام منفيا كقولنا : « لا ينجح إلاّ المجتهد »

ـ ب ـ الوصف البلاغي: لــ: لكنْ، إنّما، وإلاّ

للقصر طرق كثيرة أشهرها :

1 ـ أن يكون القصر بالنّفي والاستثناءكقولنا : « ما العلم إلاّ نورٌ »

2 ـ أن يكون القصر بـــ « إنّما » كقولنا : « إنما العلم نورٌ »

3 ـ يكون القصر بالعطف « لكنْ » كقولنا « لا أحب القهوة لكن الشّاي ». ويشترط فيه الشروط نفسها التي ذكرناها في الوصف النحوي ويكون المقصور عليه في النفي والاستثناء هو المذكور بعد الأداة في الغالب ، وينطبق الحكم نفسه على « إنما »بالمطلق والمقصور عليه مع « لكنْ »هو المذكور بعده44 ، وينطبق ذلك على « بل »

(1) ينظر : المرجع نفسه ، ص384.
(2) ينظر : المرجع نفسه ، ص ، ن.
(3) إميل بديع يعقوب ، معجم الإعراب والإملاء ، ص65.
(4) عبد اللطيف شريفي وزبير دراقي ، الإحاطة في علوم البلاغة ، ص 82.

ج ـ الوصف الحجاجي: في كتاب البخلاء للجاحظ اخترنا النّص التالي : حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام قال : قلت مرّة لجار كان لي من أهل خراسان أعرني مقلاتكم ، فإني أحتاج إليه قال : قد كان لنا مقلي ولكنّه سرق فاستَعرتَ من جار لي أخر فلم يلبث الخراساني يسمع كشيش اللحم في المقلي ، وشّم الطّباهج ، فقال لي كالمغضب : ما في الأرضي؟ أعجب منك لو كنت أخبرتني أنّك تريده للحم أو لشحم لوجدتني أسرع إليك به ، إنمّا تريده للباقي وحديد الباقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم ، وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج ، والباقلي بعد الردّ من الطباهج أحسن حالاً منه وهو في البيت»[1] .

في النص أدوات حجاجيّة هي:

أ ـ لكنّ: في قوله «كان لنا مقلي لكنّه سرق»إنّ هذا الملفوظ يرتكز على حجتين هما:

1 ـ قد كان لنا مقلي «ونشير إليها بـ «أ»

2 ـ «سرق» ونشير إلي الجملة ب «ب»

فالقسم الأول من الملفوظ يتضمن حجة تخدم السّائل أو الطالب «أعرني» أي المتكلم باعتبار أن ما يطلبه موجود في حين القسم الثاني «سرق» لايخدم المتكلم ، لأنّ هذه الحجة ضد ما ينتظره الطالب أي المتكلم ، وهي أقوى من الحجة الأولى ، فالحجة«كان لنا مقلي»وهي ملفوظ مثبت تعارض «opposition» مع الحجة «سرق» ، وهي ملفوظ منفي للحجة الأولى عبر الرابط «لكن» الذي أفاد الاستدراك ، ومن ثمة تحقق إبطال الحجة الأولى.

وفي الحجة الأولى تأكيد للخبر عبر الحرف «قد» الحقيقية التي دخلت على الفعل الماضي ، ومن ثمة تأكيد للنتيجة بينما الحجة «سرق»انعدام لهذا التأكيد ، وبالتالي عدم تأكيد النتيجة المضادة التي عجزت عن توجيه الخطاب ، لأنّها بدورها حصل لها أبطال بالحجة «ج» في قوله «لو كنت خبرتني أنك تريده للحم ... لوجدتني أسرع إليك به ف«لو» رابط حجاجي أعاد الاعتبار للحجة «أ» ومن ثمة كان التأكيد ب«قد» للنتيجة أمرا طبيعيا ، فنسف بذلك الرابط الاستدراكي « لكن» والنتيجة المضادة للحجة «ب» وفي هذه الترسمية يتجلى بوضوح:

(1) أبو عثمان بن بحر الجاحظ ، كتاب البخلاء ، دار المجدد للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 2011 ، ص20.

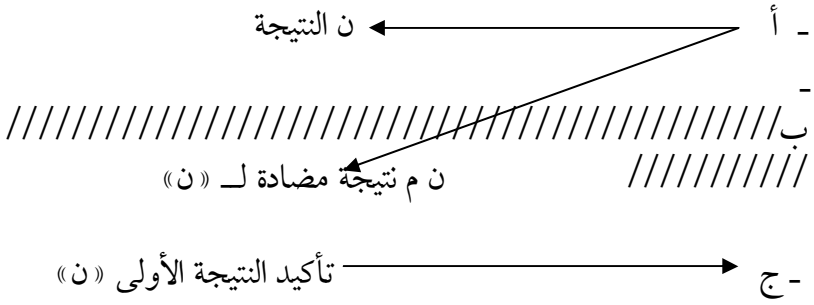

يمكن أن نرمز الحرف اللاتيني « Z« فيما يخص نسق النتيجة المضادة بـ الحرف « لو« وهو يفيد امتناع لامتناع ، أفاد التعليق في الماضي.

لجأ الساري إلى « إنّما » في قوله « إنّما تريده للباقي متبوع لحجة الاستشهاد ، وهي أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة[1] في قوله: « ... وحديد المقلى يحترق إذا كان الذي يقلي فيه ليس بدسم» كاستمرارية طبيعية لتبرير النتيجة « ب» خطابا ، ملحًا على ظاهرة الإفادة « pertinence » بالاستفهام في قوله : « وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج ...؟ ، وهو إنشاء طلبي غرضه البلاغي النفي ، ثم يتبعه بخبر ابتدائي يظهر فيه المأزق الأخلاقي في قوله: والمقلى بعد الرّد من الطباهج أحسن حالاً منه وهو في البيت يعلل قوله: « ... ولكنه سرق» ، ولكننا لو حكمنا عليه من زاوية مذهب الحكم « la doctrine du jugement» فهو غير أخلاقي ، لكنه يحمل نكهة فكاهية في وصف الطبيعة غير سوية للبخلاء ونزواتهم النفسية.

لقد عرف برندونير brandonnerالسّخرية بأنّها حجة على فرضية ما [2] فظاهر الاستفهام في قوله : « وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج» هو النفي ، ولكنّ باطنه سخرية ، لأن صاحبه يدّعي الجهل ، متخذاً من التشّكيك أسلوباً خالقًا وضعية ساخرة تدعم الفعل الحجاجي الذي يثبت المقام الفكاهي للخطاب وفي الوقت نفسه ينفي صفة السّخاء على البخيل ، ويضعه في منزلة الكائن الوضيع ، الفاقد للحس الأخلاقي ، لأنّه كائن حيّلي« un être demanigance »

الوصف النّحوي للحرفين « الفاء» و« الواو »

ـ أ ـ الفاء كحرف عطف

(1) صابر الحباشة ، التداولية والحجاج ، ص49.

(2) ينظر : سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم ، عالم الكتب الحديث وجدار للكتاب العالمي ، عمان ، الأردن ط1 ، 2008 ، ص164.

يعطف اسما أو جملة على جملة[1] وتفيد.

1 ـ الاشتراك : أي اشتراك المعطوف مع المعطوف عليه في الحكم كقولنا: «حلّ عمر فعلي».

2 ـ الترتيب كقولنا: «أكلت تفاحة فبرتقالة».

التعقيب: كقولنا: «كانت علاماته سيئة فرسب في الامتحان».

ـ ب ـ الفاء كحرف استئناف.

يستأنف ما بعده بكلام لا علاقة له بالكلام السابق[2].

كقوله تعالى: « فلما أتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالي الله عما يشركون» (سورة)

ـ حرف الواو.

ـ حرف عطف لمطلق الجمع، يعطف اسما على اسم أو جملة على جملة كقولنا: «حل يزيد وخاطب في القسم»

ـ الوصف الحجاجي :نحاول أن ندرس الرابطين «الفاء والواو» في النص التالي «قالوا: **دعا عبد الملك بن قيس الذئبي رجلا من أشرف أهل البصرة وكان عبد الملك بخيلا على الطعام ، جوادا بالدراهم فاستجب الرّجل شاكرا ، فلما رآه عبد الملك ضاق به ذرعا فأقبل عليه فقال له: ألف درهم خبر لك من احتباسك علينا ، فاحتمل عزم ألف درهم ولم يحتمل أكل رغيف»**

في النّص توظيف للحرفين «الفاء والواو» توظيفا ، حجاجيا فقد استعمل السارد حرف «الفاء» خمس مرات وحرف «الواو» مرتين ، ففي المرة الأولى استعمل «الواو» كرابط يفصل بين حجتين لا تخدم نتيجة واحدة ، حيث من جهة يرسل دعوة ، ويفهم منها سخاء الرّجل ، وبالمقابل هو بخيل على الطعام ، أي أننا أمام مفارقة والحجة التي تلي الرّابط أي قوله: «وكان عبد الملك بخيلا على الطعام» هي الأوضح والأقوى ، وتستمر هذه المفارقة بين بخله على الطعام وسخائه بالمال ، أي جمع بين ضدين «البخل≠ الجود» فنحن أمام توريط قصدي ليستمر في قوله في قوله: «فاحتمل غرم ألف درهم ولم يحتمل أكل الرغيف».

لقد سلك السارد في نصه بأنّ طرح حجة أي الدعوة ثم أسقطها بعد الرّابط «و» بحجة مضادة متمثلة في البخل على الطعام ، ثم أخذ موقفا توفيقيا بأن

(1) ينظر : أميل بديع يعقوب ، معجم الإعراب والإملاد ، ص 294.
(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص126.

حصر البخل في الطعام فقط لكي لا يبطل كليا الحجة «أ» أي الدعوة التي تؤدي وظيفة إخبار L'informativiteوبالمقابل الحجة «ب» فهي تؤدي وظيفة المحاجة L'argumentativiteالتي تتأكد عبر الرّابط الفاء الذي أفاد الترتيب واشتراك في الحكم الذي أطلقه السّارد في وصف عبد الملك بن قيس الذّئبي.

إنّ الواو هو الرّابط الذي حدد علاقة المجال بين الحجة المضادة ،والنتيجة كان رجلا بخيلا على الطعام «ولم يحتمل أكل رغيف» بينما الفاء فهو الرّابط الذي ضمن التسلسل القولي للوصول إلى النتيجة المقصودة التي تتعارض مع الحجة «أ» بل معها ، في حين تقوي الحجة المضادة .

3 . الرّابط والعلاقة الحجاجية

إن الروابط الحجاجية أدوات توفرها اللغة للباث أي المرسل ليربط بين مفاصل الكلام ؟ فتتأسس بذلك العلاقة الحجاجية المنتظرة ، ففي هذه المقطوعة النثرية التالية «...**حم الثوري وحم عياله وخادمه ، فلم يقدروا مع شدة الحمى على أكل الخبز ، فربح كلية تلك الأيام من الدقيق ففرح بذلك وقال: لو كان منزلي سوق الأهواز ، أو نطاه خبير أو وادي الجحفة لرجوت أن أستفضل كل سنة مئة دينار ، فكان لا يبالي أن يحم هو وأهله أبدا** ...[1] لقد تجلت أهم العلاقات الحجاجية في هذا النّص وهي:

ـ أ ـ علاقة التتابع: وتظهر عبر الروابط الواو والفاء خاصة ، فالسارد يبني نصه على هذه العلاقة فيصل بين الحدث الرئيس وهو الحمى والحدث الفرعي «الربح» والنتيجة «الفرح» فالفاء هو المكون والربح حجة، وفي تضعيفها تتحقق النتيجة ، لأنه الحاجة إلى النحل أعظم من الشفاء ومن ثمة لم نشعر بأسلوب الاستهجان بل تأكدت قمة الوضاعة والوقاحة لدى الثوري.

ـ ب ـ علاقة الاقتضاء: في هذه العلاقة تجعل الحجة تقتضي النتيجة ، وهذا التلازم مصطنع[1] والرّابط الأكثر توظيفا في هذه العلاقة هو أداة الشرط التي تضمن علاقة الاقتضاء. ويظهر هذا الرابط في قوله: «لو كان منزلي سوق الأهواز... لرجوت أن أستفضل كل سنة مئة دينار» فالجملة الشرطية غير الجازمة مؤلفة من جملة الشرط «لو كان منزلي...»وجواب الشرط «لرجوت» وقد جسدت علاقة الاقتضاء بين السبب والنتيجة فأدت بذلك وظيفتها الحجاجية في المقطوعة عقد لعلاقة التتابع عبر الرّابط النحوي «الفاء» مع الاقتضاء عبر الرّابط النحوي «لو» فالحمى حجة ونرمز إليها بـ «أ» والافرح

(1)ينظر : سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم ، ص335.

هي النتيجة ونرمز إليها بـ «ب» وفق تسلسل غير منطقي لأن الحمى نقيض الفرح ومن ثمة جرى الخطاب بخلاف المنطق الأخلاقي ، ومن خلالها يستنتج السارد حكما عبر الترتيب الشرطي للإقرار بما قاله سابقا.

نلمس في المقطوعة انتقال منظم وسهل من وضعية إلى أخرى بيد أن الاستنتاج المنطقي من الحجة «أ» إلى النتيجة «ب» ليس هو المستهدف ، وإنما إثارة المتلقي بالارتكاز على السياق الفكاهي في لحظة الخطاب ، حيث لا نجد مقدمة وعرض وخاتمة كما هو متعارف عليه ، وإنّما الانتقال السريع من مقدمة أولى إلى نتيجة أساسية وفي المنظور الحجاجي لا حاجة للمتكلم إلى مقدمة وسْطىء[1] .

والملاحظ أن أكثر من نص لا نجد توافقا منطقيا بين الحجة والنتيجة بل تغلب عليه صفة التناقض ، فإذا كان الاستنتاج المنطقي قد تحقق على مستوى الخطاب فإنه بالمقابل يتعارض ويناقض مع المتوقع في الخطاب ذاته ، ففي المثال السابق نجد الحجة «الحمى»وما يصاحبها من ألم وشكوى كنتيجة منطقية في الواقع بيد أنّ النتيجة عكس ذلك تمام «الفرح»وبالتالي تتعارض مع الاستنتاج الطبيعي لإثارة المتلقي وشدّه عن طريق الوظيفة

التفسيرية la fonction explicative في قوله: فربح كلية تلك الأيام من الدقيق ففرح بذلك الطابع الفكاهي والسخرية من البخلاء في أن واحد.

وتتكرر هذه الوصيفة المثيرة لإضحاك في تصوير مفارقات البخلاء الصارخة في قوله : «وقد رأيته وسمعت منه من البخل كلاما كثيرا وكان من البصريين ينزل بغداد مسجد ابن رغبان ، ولم أر شيخا ذا ثروة اجتمع عنده وإليه من البخلاء ما اجتمع له... وأبو عبد الرحمن هذا شديد البخل، شديد العارضة غب اللسان، وكان يحتج للبخل ويوصي به ويدعو إليه وما علمت أن أحدا جرد في ذلك إلا سهل بن هارون»[2] .

في هذا الخطاب وفي جميع النصوص التي إحتواها كتاب «البخلاء» يتركز الفعل التلفظي على مكونيين هما:

ـ أ ـ المكون النحوي

وله هيئة نظامية متجانسة ، أي تحمل صفة التجانس« homogénéité »، تقوم على الروابط الحجاجية ، ويراعي فيها القواعد التي وجدت من أجلها.

ـ ب ـ المكون الدلالي الفكاهي

(1) أنظر : سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم ،ص 343.
(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص89

غير متجانس في منظومته ، حيث صفة الشاذ hétéroclite هي المتوقعة ،

ومن ثمة يغيب المعنى الاستلزامي أو منطق الأشياء فالحمى حجة والألم أو الشكوى نتيجة وذلك عندما يتجانس الملفوظ «الحمى» مع الملفوظ«ألم» ولكن عندما يكون «الفرح» نتيجة يصبح المعنى شاذا ، والملفوظ في غير مقامه، المثال السابق يمكن التخطيط له وفق الشكل التالي:

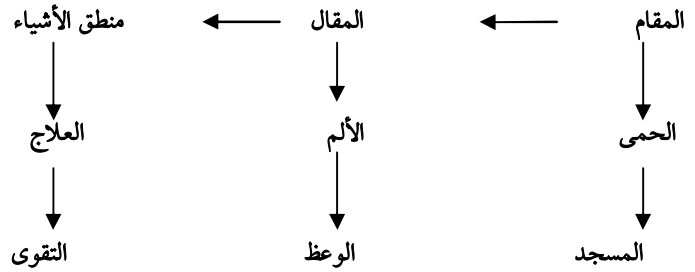

هذا في المكون الدلالي المنطقي والطبيعي والمتوقع أما في المكون الدلالي الفكاهي غير المتوقع فنجد:

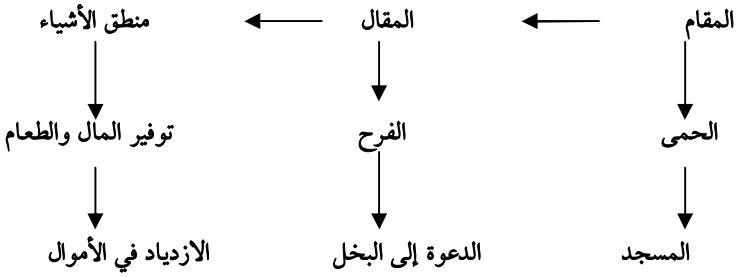

إذا كان النحو اكتسب صبغة تداولية عبر الروابط الحجاجية فإن هده الأخيرة وظفت في إطار تشكيل هذا الخطاب (الشاذ الذي لا يستجيب له للتوقع في كتاب « البخلاء» ونجاعته تكمن في إضحاك الملتقى ، هذا الأخير إذا كان لا ينتمي إلى نوعية من الناس اتخذوا من البخل سلوكا لهم ففي هذه الحالة يكون تثبيت ذلك السلوك غاية الخطاب أما إذا كان المتلقي مترددا بين البخل والسخاء فنجاعة الخطاب تمكن في ضرورة إقناعه بالبخل ويبقى الملتقى النوعي الذي يرى في قصص البخل تنديدا غير مباشر بشيوع ظاهرة البخل في المجتمع العباسي وهي تتعارض وسخاء الإنسان العربي ، إذ هناك قيمتان أساسيتان عند العرب هما الكرم

والشجاعة وحولهما يحتكم تصور الإنسان العربي للحياة والوجود [1] فالكرم قيمة وجودية على حد تعبير الغذامي ، فكان الالتزام بها أمر محتوما ، وهي مرتبطة بمنظومة ثقافية وأخلاقية جذورها ممتدة من حقبة سيادة القبيلة في المجتمع العربي، ولما أصبح المكسب أساس العلاقة بين الذات والأخر في مجتمع المدينة حدث تحول جذري في تلك المنظومة ، فهذا التحول مس النظام الذهني للإنسان العربي فأضحى القيمة البديلة ، فكان كتاب الجاحظ «البخلاء» تحولا هاما في توظيف آليات (اللغّة والطاقة التعبيرية من مؤسسة وعظية محددة المهام إلى مؤسسة فنية ، تعتمد على مهارة القراءة الحرة فهو من جهة يكشف الخراب ألقيمي للمجتمع العباسي ، ومن جهة أخرى ينسق كل الخطابات التي تتحدث عن واقع لم يعد موجودا في السلوك اليومي للإنسان العربي[2] ، فهو واقع ذهني ، تكرار لخطاب ثقافي انتهى ، فسعى الشعراء إلى ابتكاره بالإشادة بكرم الممدوح مثلا ولكن الجاحظ في قصصه لجأ إلى التعريض المتضمن للاستهزاء في الرد على هؤلاء الذين اتخذوا من الكرم صناعة أدبية ، والحقيقة هي أن البخل قيمة تسعى إلى إلغاء الكرم كقيمة أصلية والسخرية منها ، لأنها مجرد ملفوظ يعيش في الخطاب الشعري فقط.

عندما نقرأ كتاب« البخلاء» نصطدم بتحول شخصية البخيل من كائن مقـزز إلى محبب ومضحك ، فعندما نحلل شخصية مـن الشخصـيات الكتـاب ، ونأخـذ مثلا ذلك الرجل الذي كان مع أبي نواس الذي يأكل وحده فيسأله أبـو نـواس: « لم تأكل وحدك؟» فيرد عليه: « ليس علي في هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكليف وأكلي وحدي هـو الأصـل ، وأكلـي مع غيري زيادة في الأصل[3] « نكشف عبثيـة المواقـف الـتي تخـدم حجـة البخـل argument de lavarice« وحجة الاتجاهargument de direction « فالبخل إنسان ذميم، يتحاشى الناس التعامل معه ، لكـن في الخطـاب الجـاحظي لا يظهـر ذلـك ، بـل أضحى البخيل الرجل الطريق اللّعوب ، ومن ثمة يمكـن التعامـل معـه بنـزع منـه صفة الذم منه وحل محلها صفة الدماثة والليونة.

الخاتمة:

إن« كل لعبة لغوية لها منطقها ، الداخلي[4] « وفي كتـاب» البخلاء« تكـرار

(1) ينظر : عبد الله الغدامي ، النقد الثقافي ، المركز العربي ، الدار البيضاء المغرب ، ط3 ، 2005 ، ص145.
(2) المرجع نفسه ، ص152.
(3) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص21.
(4) صابر الحباشة ، التداولية والحجاج ، ص77.

لأنماط معنية من الروابط الحجاجية تخلص إلى التفكير بالحجة ، حيث « تتأتي قيمة الجملة من حجة صاحبها[1] » ، ففي كل قصة من قصص المتن تنطلق من حجة لتنتهي إلى نتيجة عبر الأسلوب الساخر الذي هو الجوهر« substance » ، وليس مجرد شكل ، وهو محمل بالبعد السسيو ثقافي لإظهار إخفاقات المجتمع العباسي على استمرارية تقليد الكرم وحسن الضيافة ، وبالتالي اختفاء السلفية ancestraux على حد قول رولان بارت.

إن كتاب « البخلاء » ولادة جديدة للكتابة الحجاجية ، البعيد عن الكتابة التي توظف نفسها لخدمة الثقافة المزيفة عبر استمرار خطاب الكرم والجود في الشعر المدحي مثلا ، ومن ثمة كشف الجاحظ عن « تراجيديا القيم » ، وشيوع أسلوب التنميق والتملق لتحيين (Principe de l'échange » فالشاعر باعتباره منتج الخطاب نال الخطوة والمال ، والممدوح بوصفه مستهلك الخطاب نال وسام السخاء ، وكلامهما لا يمثلان حقيقة الواقع الموجود بالقيم السلبية ، قيم النفاق والرياء وإضمار الحقيقة .

(1)دومينيك مونقانو ، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ص12.

المصادر والمراجع

. أولا المصادر

1 ـ أبو عثمان عمو بن بحر الجاحظ ، دار المجد النشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1 ، 2011.

2 ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1981.

. ثانيا المراجع

1 ـ دومينيك مونقانو ، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة : محمد يحياتن ، منشورات الاختلاف ، ط1 ، 2005.

2 ـ عبد السلام عشير ، عندما نتواصل نغير ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط1 ، 2006.

3 ـ أبو بكر العزاوي ، اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط12006.

4 ـ صابر الجباشة ، التداولية والحجاج ، صفات للدراسات والنشر ، دمشق ، سورية ، ط 12008.

5 ـ مر بالخير ، معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطات الصحافي الجزائري ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، 2005 ـ 2006.

6 ـ إميل بديع يعقوب ، معجم الإعراب والإملاء ، دار شريفة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 دت.

7 ـ عبد اللطيف شريفي وزبير دراقي ، الإطاحة في علوم البلاغة ، د ، م ، الجامعية ، الجزائر ، ط ، 2004.

8 ـ سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر القديم ، عالم الكتب الحديث ، وجدار للكتاب العالمي ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2008.

9 ـ عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ط32005.